

"استتسراق" إدوارد سعيد في المغرب

يحيى بن الوليد
باحث مغربي



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

"Pourquoi Les Forces Du Livre [Orientalism, E. Said], Plutôt Que Ses Faiblesses, Sembler Bien Plus Importantes Pour Un Disciple Par Exemple Travaillant Au Maroc, Au Singapour, Ou En Inde"

George P.Landow

الملخص التنفيذي:

ساهمت دراسات محدّدة في تكريس ريادة الأكاديمي الأمريكي والمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد (1935 - 2003) في مجال "نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي" (Postcolonialism) التي وجدت أكثر من صدى لها في ثقافات مختلفة ومتباعدة ضمنها الثقافة العربية المعاصرة التي بدت مهياة - أكثر - لـ "جبهة نقد الاستشراق" مقارنة بباقي الجبهات التي خاض فيها إدوارد سعيد نفسه. ويظل كتاب "الاستشراق" (1978)، في منظور البحث، الأكثر جدلا مقارنة بباقي دراسات إدوارد سعيد التي تنتظم ضمن الجبهة نفسها، بل إنه يظل الأكثر جدلا ضمن الدراسات التي تصدّت لـ "نقد الاستشراق" بصفة عامة.

وقد حظي الكتاب بـ "استقبال" واسع، وبدءا من الغرب ذاته الذي ظهر في سياق من سياقاته الأكثر بروزا وهيمنة وهو "السياق الأنجلو أمريكي" بنتاجه الأكاديمي وزخمه الإعلامي. إضافة إلى "التلقي ما بعد الكولونيالي"، أو "العالمثالي"، للكتاب، لا سيما في الهند. وهذا في مقابل "شحوب" طال تلقّي الكتاب نفسه في العالم العربي ككل مقارنة مع الهند التي كان فيها وراء دراسات صارت مراجع تأسيسية في مواضيعها.

وبالرغم من الشحوب سالف الذكر يستخلص البحث نوعا من "التلقي العربي" للكتاب وللمنجز السعدي بصفة عامة. ولذلك يشير إلى بعض المراجعات التي عنيت بالتلقي الأخير مثلما يحيل على بعض الأسماء العربية التي أسهمت في الموضوع. ومن هذه الناحية يخلص البحث إلى التغييب التام الذي يطال أسماء مغربية من قبل بعض دارسي موضوع التلقي العربي، وهذا مع أن بعض هذه الأسماء مكرّس في الفكر العربي المعاصر ككل. وفي مقدّم هذه الأسماء المؤرخ المفكر عبد الله العروي الذي أحال عليه إدوارد سعيد نفسه في أكثر من موضع. إضافة إلى أسماء أخرى مثل عبد الكبير الخطيبي صاحب أطروحة "النقد المزدوج"، ومثل الأنثروبولوجي عبد الله حمودي... وأسماء أخرى كثيرة، من الباحثين الشباب، في جامعات متفرقة داخل المغرب... وفي مجالات مختلفة ما دام أن كتاب "الاستشراق" فرض ذاته في تخصّصات مختلفة سعى البحث إلى استحضارها واستخلاص أهم مقولاتها النظرية ومستنداتها التصورية في سياق "استقبال" الكتاب الذي لا يفارق سياق مطمح "التملك الثقافي" لصاحب الكتاب.

ثمة دراسات محدّدة أسهمت في تكريس ريادة إدوارد سعيد في مجال (نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي) التي ستحوّل، لاحقاً، إلى (الدراسات ما بعد الكولونيالية). ودراساته هاته تندرج ضمن ما يمكن نعتة بـ(جبهة نقد الاستشراق)، وهي كالاتي: (الاستشراق) (1978)، و(مسألة فلسطين) (1979)، و(تغطية الإسلام) (1981)، و(الثقافة والإمبريالية) (1993)⁽¹⁾. وإذا جاز أن نجازف، في تلخيص هذه الدراسات، فإنّه يمكن القول إنّها تعكس (التشكّلات الخطابية) التي تكشف عن "تتميطيات" الغرب للشرق في سياق مواكبة الثقافة للإمبريالية. وبكلام جامع للأكاديمية والكاتبة الهندية ليلي غاندي: "تكشف عن العلاقة غير السوية تاريخياً بين عالم الإسلام والشرق الأوسط والشرق من ناحية، وعالم أوربة والإمبريالية الأمريكية من ناحية أخرى"⁽²⁾.

غير أنّ كتاب (الاستشراق) يظل الأكثر جدلاً مقارنة بباقي دراسات إدوارد سعيد؛ بل يظل الأكثر جدلاً ضمن الدراسات التي تصدّت لـ (نقد الاستشراق). لقد غيّر هذا الكتاب الإشكالي والصادم مسار البحث في العديد من العلوم، ووجد له قارئين في ثقافات ولغات عالمية، ووجد له مهتمين في حضارات مختلفة؛ بل تحوّل إلى مرجع لأعمال تأسيسية عديدة. بالإضافة إلى من "حاوروه"، من منظور (نقد النقد) بمعناه الجذري، وفي إطار من دراسات موضوعية وأعمال مستقلة. إنّهُ -كما يقول أحد ناقديه (إعجاز أحمد)، وبلغه رايموند وليامز- علامة على "أخلاقيات السبعينيات" في أمريكا⁽³⁾.

واستطراداً، "مؤلف (الاستشراق) لم يقلّب رفّ الكتب فحسب؛ بل تجاوز ذلك إلى هزّ الكراسي"⁽⁴⁾. و"قيمة (الاستشراق) لا تكمن في الأفكار التي يطرحها الكتاب فحسب، بل، أيضاً، بالارتباط مع ذلك في الجدل الخلاق، الذي أسهم في التعاطي الواسع والعميق مع ما جاء به المؤلف"⁽⁵⁾.

والحق أننا لا نريد، هنا، أن نعرض لمضامين الكتاب، أو أن نستعيد الانتقادات التي وجّهت له؛ بل إنّ عملاً من هذا النوع لا يمكن الاطمئنان إليه، ولا يخلو من صعاب عدة، بالنظر إلى المرجعيات المختلفة؛ بل

¹ جميع هذه الكتب ترجمت إلى العربية؛ بل هناك ما عرف أكثر من ترجمة، عدا (مسألة فلسطين). غير أنّ الكتاب الأخير حظي بمراجعة شنيعة من قبل الكاتب اللبناني إلياس خوري، وهي منشورة تحت عنوان (سؤال النكبة)، وضمن الملف المكرّس لإدوارد سعيد (إدوارد سعيد مفكر كوني وفلسطيني بالولادة). مجلة الكرمل، العدد 78، شتاء 2004م، ص ص 46 - 55.

² ليلي غاندي، إدوارد سعيد ونقاده، ترجمة حسن خضر، الكرمل، العدد 81، خريف 2004م، ص 54.

³ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ أحمد أمين جلّالي، مؤلف الاستشراق من وجهة نظر مستشرقين، سلسلة جديدة 02، الطبعة الثانية، 2007م، ص 177.

⁵ كريم بخيت، بين الأدب والنقد والسياسة، قراءة في كتابات إدوارد سعيد، مجلة بصمات، ص 44.

حتى المتصادمة، التي يصدر عنها نقاد إدوارد سعيد ومراجعوه. ثم إنَّ ما كُتب عن الاستشراق بصفة خاصة، وعن المنجز السعيد بصفة عامة، يشكل مكتبة قائمة بذاتها، ولا يمكن التعامل معه إلا من خلال بيليوغرافيا مستقلة وتقريبية في الوقت ذاته. ولذلك، فإنَّ هدفنا أن نتوقّف عند (استقبال) الكتاب في المغرب، وكلّ ذلك في المدار الذي يجعلنا نطمع، معرفياً، في استخلاص انتقادات من النوع السابق.

وقبل أن نقد على هذه الخطوة، فإنه لا بأس في تأكيد أن الكتاب عرف تلقياً واسعاً، بدءاً من الغرب ذاته، الذي ظهر في واحد من سياقاته المهيمنة، إن لم نقل أبرز هذه السياقات المهيمنة، وهو (السياق الأنجلو أمريكي). غير أنَّ الكتاب تجاوز (الاستقبال) (Réception) نحو ما تسمّيه الدراسات التأويلية (صراع القراءات)، وهو صراع لا يمكن لأفكاره ومفاهيمه أن تتّضح بمعزل عن (النص القوي) إذا جاز التوصيف التفكيكي الدريدي. ونصّ من النوع الأخير يستلزم، في إطار من (التشابك المعرفي المثمر) الذي يحفّز عليه، نوعاً من (الفكر القرائي). ومن هذه الناحية، كُتبت عن الكتاب كتبٌ مستقلة، ومقالات متفرقة في مجلات متخصصة وازنة، بالإضافة إلى سيل من المراجعات والكتابات الصحفية في الملاحق الثقافية للصحف المكرّسة وغير المكرّسة، في الغرب وفي الشرق على السواء، مع فارق بين الطرفين الأخيرين، طالما أنَّ الاستشراق ذاته قائم على "تمييز شنيع" بين الشرق والغرب كما في أطروحة كتاب (الاستشراق). إجمالاً: إننا، في حال إدوارد سعيد، بصدد أحد الكتب النادرة وغير المسبوقة.

ولا تخلو هذه القراءات من "اختلاف"؛ بل من "عداء" جليّ، كالذي عبّر عنه المتصهين وبطيريك الاستشراق (السياسي) المعاصر برنارد لويس (Bernard Lewis). وقد جرت العادة على أن يُنظر إلى هذا الأخير على أنّه يهتم، من خلال العالم الإسلامي الحديث، والشرق الأوسط تحديداً، بعلاقة الإسلام بالغرب. وقد ألّف هذا الأخير، على مدار نصف قرن من الزمن، كتباً عديدة أصرّ فيها على تحذير الغرب من (السُّعار الإسلامي). بالإضافة إلى أنّه اضطلع، منذ أحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001م، بدور الموجّه لـ (السياسة الأمريكية) فيما يتعلق بشؤون الإسلام والمسلمين والشرق الأوسط. وللمناسبة فقد زار هذا الأخير، خفيةً، المغرب. وشارك، من ثمّ، في ندوة (حوار الثقافات: هل هو ممكن؟)، التي نظمتها أكاديمية المملكة المغربية (كانون الأول/ديسمبر 2003م). واللافت للنظر أنه شارك في جلسة لم يكن مقرراً أن يشارك فيها، إضافة إلى أنه غادر القاعة دون أن ينصت للردود، التي كانت ستثيرها مداخلته المرتجلة⁽⁶⁾. إنه، حقاً، (حوار الثقافات)؛ لكن على الطريقة التي أرادها برنارد لويس.

⁶ بخصوص هذه المشاركة، انظر: برنارد لويس في أكاديمية المملكة المغربية – كيف سمح لنفسه بنفث سمومه دون أن يعطي غيره حق الرد، الصحيفة، العدد 142، 2003 – 2004م.

وكما أنه يمكن الحديث، فيما يتعلق بكتاب (الاستشراق)، عن نوع من (التلقي ما بعد الكولونيالي)، أو (العالمثالي)، لا سيما في الهند مع جياتري سيفاك (Gayatri Chakravorty Spivak)، وهومي بابا (Homi K. Bhabha)، دونما تغافل عن الناقد الهندي الماركسي إعجاز أحمد (Ijaz Ahmed)، الذي سلفت الإشارة إليه قبل قليل. فقد كرّس هذا الأخير نقداً ماركسياً قوياً لـ(استشراق) إدوارد سعيد في كتابه (في النظرية) (1992م). وقد قام المترجم السوري ثائر ديب بترجمة الأجزاء المتعلقة بنقد هذا الأخير لإدوارد سعيد، وضمّها في كتاب معنون بـ(الاستشراق وما بعده) (2004م). وكانت ليلي غاندي (وقد سلفت الإشارة إليها في سقف المقال) قد اهتمت بالتلقي الهندي في كتابها (نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي) (1998م). ويظهر أن جانباً من هذه الدراسة قد ظهر مترجماً تحت عنوان (إدوارد سعيد ونقاده)⁽⁷⁾.

وتجدر الإشارة إلى أنه في المنظور الماركسي ((الدوغمائي) كما ينعتة إدوارد سعيد) ستتشكل قراءات عربية لكتاب (الاستشراق): بدءاً من قراءة صادق جلال العظم، التي سيضمها في كتاب (الاستشراق والاستشراق معكوساً) (1981م)، وقراءة مهدي عامل في كتابه (ماركس في استشراق إدوارد سعيد) (1985م)، ومقال هادي العلوي (الاستشراق عارياً) المنشور في مجلة (الكرمل) (العدد 15، 1985م). غير أنه سرعان ما ستتصاعد وتيرة قراءة كتاب إدوارد سعيد، اعتماداً على مرجعيات مختلفة ستبلغ، أحياناً، حدّ (صراع القراءات) أو (التأويلات). غير أن ما سلف لا يعني اختزال أو تلخيص قراءات إدوارد سعيد في القراءات الماركسية فحسب، بما في ذلك القراءات ما بعد الماركسية أيضاً. "ولسعيد، عموماً، قراءات ما بعد بنوية وماركسية، وقراءات في مجال الدراسات الإقليمية (شرق أوسطية وآسيوية)، وكلّها تتمحور، إلى حدّ بعيد، حول الاستشراق"، كما يلخص وليام د. هارت (William D. Hart) في كتابه (إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية والثقافية)⁽⁸⁾.

ويتصوّر كثيرون أنّ إدوارد سعيد بدا قاسياً مع القراءات العربية التي عُيّنت بالكتاب، هذا في الوقت الذي يرى فيه بعضهم أنه لم يكثرث بالتلقي العربي لكتابه. ويتصوّر نادر كاظم، في دراسة له (إدوارد سعيد ونصه بين تعدد السياقات والتأويلات المغلوطة)، "أن انتقال (الاستشراق) من سياقه الغربي وما بعد الكولونيالي إلى السياق العربي قد مهّد السبيل لظهور كثير من القراءات الاستعمالية (القراءات الإسلامية والقومية على وجه الخصوص)، أو القراءات المعيارية (القراءة الماركسية). وأغلب هذه القراءات كان يتحرّك

⁷ انظر نصّ الترجمة في مجلة الكرمل، العدد 81، خريف 2004م.

⁸ وليام د. هارت، إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية والثقافية، ترجمة قصي أنور الذبيان، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، 2011م، ص 9

بانتقائية وتجزئية، ويتعامل مع الكتاب بغائية لا تحترم كثيراً (قصدية النص)، ولا خلفيته الثقافية ما بعد الكولونيالية⁽⁹⁾.

غير أن هذا الحكم لا يتعافى، في منظور الدارس ذاته، عن دارسين عرب لاحقين كصباحي حديدي، وفخري صالح... سلكوا نهجاً قرائياً مغايراً؛ نهجاً، باصطلاح السيميائي الإيطالي إمبرتو إيكو، (محايثاً) (على افتراض أن هناك قراءة محايثة) لا (استعمالية). ثم إن أيّ قراءة، بما في ذلك القراءة التي تبدو لنا (وصفية)، أو (علموية)، لا تخلو، في النظر الأخير، من (تأويل)؛ شريطة أن نميز، هنا، ما بين (التأويل) (Interprétation) و(التأويل المفرط) (Surinterprétation)⁽¹⁰⁾ حتى لا تتمّ التضحية بـ(أصول النصوص). وكان إدوارد سعيد يؤمن بـ(أصول النصوص)⁽¹¹⁾، ما جعله معارضاً شعاعاً (صديقه) تزفيتان تودوروف "النص يتوجّه إلى كلّ من يقرؤه"، وقبل ذلك شعار الفيلسوف جاك دريدا "لا شيء خارج النص".

غير أن ما يؤخذ على بعض الدراسات، التي اهتمت بموضوع التلقّي العربي لنص (الاستشراق)، بما في ذلك دراسة نادر كاظم سالفة الذكر، على أهميتها التي لا تنكر، إغفالها التام لـ (الحضور المغربي)، أثناء الحديث عن هذا التلقّي. وفي هذا الصدد، تتوجب الإشارة إلى المؤرخ والمفكر المغربي الألمعي عبد الله العروي، الذي لا يمكن حصره في دائرة تلقّي النص السعدي، وإنما في ما يتجاوز ذلك إلى "التأثير" في المرجعية الناعمة للكتاب. وإدوارد سعيد، بدوره، لا يخفي تأثير عبد الله العروي فيه. إجمالاً، يشير إدوارد سعيد، في أهم كتبه الإشكالية، إلى العروي؛ وينعته، في كتاب (الاستشراق) بـ "المؤرخ والمنظر السياسي"، وفي (الثقافة والإمبريالية) بـ "أفضل مؤرخ في شمال إفريقيا اليوم"⁽¹²⁾.

إجمالاً، لم يحظ كتاب (الاستشراق) في المغرب بمقالات كثيرة، لكي لا نقول كتباً أو دراسات مستقلة... بل إن موضوع الاستشراق عامة، لاسيّما على مستوى تأثيره في أبنية الفكر المغربي والعربي على السواء، لا يزال، في المغرب، خارج دوائر (البحث العلمي)؛ بل حتى دوائر (التعليق الثقافي)؛ بل إن مفكراً مغربياً في

⁹ نادر كاظم، إدوارد سعيد ونصه بين تعدّد السياقات والتأويلات المغلوطة، مجلة البحرين الثقافية، العدد 28، 2001م، ص 114

¹⁰ يُنظر:

- Umberto Eco: Les limites De l'Interprétation, Trad: Myrlem Bouzaher, Grasset, Paris, 1992.

¹¹ شيلي والياء، صدام ما بعد الحداثة: إدوارد سعيد وتدوين التاريخ، ترجمة عفاف عبد المعطي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص 138

¹² إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981م، ص 197. وإدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، 1997م، ص 242

حجم محمد عابد الجابري، الذي أثار جدلاً واسعاً في الفكر العربي المعاصر، كان قد أعرب، منذ أبحاثه الأولى، عن عدم ميله للأخذ من أبحاث المستشرقين؛ بل حتى مناقشة أطروحاتهم⁽¹³⁾.

غير أنّ هذه الملحوظة لا ينبغي لها أن تجعلنا نغفل دراساتٍ مركّزة نشرها مفكرون مغاربة على نحو ما فعل عبد الله العروي في (دراسة الثقافة - ملاحظات منهجية حول فون غرنباوم) (بالفرنسية) (1973م)، التي ضمّها إلى كتابه (العرب والفكر التاريخي) (1974م)، وقد أشار إليها أكثر من مرة إدوارد سعيد في كتابه (الاستشراق). هذا بالإضافة إلى ما كان قد تضمّن كتاب العروي السابق (الإيديولوجيا العربية المعاصرة) (1966) من ملاحظاتٍ ثاقبة حول الاستشراق والمستشرقين⁽¹⁴⁾.

كما نجد دراسات عبد الكبير الخطيبي، لاسيما دراسته المبكرة حول (حصيلة السوسيولوجيا الكولونيالية بالمغرب (1912 - 1967م)) (1967م)، التي ظهرت في شكل كتيبٍ أوّل مرة، ثمّ دراسته (تخليص السوسيولوجيا من الاستعمار) (1974). وأهمّ ما يلفت الانتباه، في الدراسة الأخيرة، علاوة على النقد الذي وجّهه صاحبها إلى السوسيولوجيا الفرنسية الكولونيالية في مراحلها المختلفة، النقد الذي وجّهه إلى ماركس والشبيه بالنقد الذي وجّهه إدوارد سعيد إلى هذا الأخير، وإن في صفحات معدودة، من (الاستشراق). وكان مهدي عامل قد تصدّى للنقد الأخير في كتيبه (ماركس في استشراق إدوارد سعيد) (1985م). كما نجد دراسة أخرى للخطيبي حول جاك بيرك (الاستشراق غير المشرق) (L'Orientalisme Désorienté) (1976م)، أو (جاك بيرك أو النكهة الشرقية) كما تمّت ترجمته. والدراستان متضمّنتان في كتابه (المغرب المتعدد) (Maghreb Pluriel) (1983م).

وعلى الرغم من أنّ الخطيبي يفتتح الكتاب الأخير بالصيحة الشهيرة، التي كان قد أطلقها فرانز فانون قبيل موته: "هيا - أيّها الرفقاء - لقد انتهت اللعبة الأوروبية، ولا بد من البحث عن شيء آخر"، فإنّه يظلّ مشدوداً إلى ما يسميه بنفسه (الفكر المغاير)، الذي هو قرين نوع من (الكيونة) التي جعلته، على سعيد دراسة الاستشراق ذاته، يميل إلى الشاعر الألماني غوته، بدلاً من جاك بيرك (منظر تصفية الاستعمار)، بل (الأكثر

¹³ لم يتمّ الربط الحدي بين محمد عابد الجابري وبعض المستشرقين إلا عندما أطلّ على جمهوره بمشروع جديد ذي صلة بقراءة النص القرآني، وموسوم بـ(مدخل إلى القرآن الكريم)، الذي سيظهر جزؤه الأول، في أيلول/سبتمبر من عام 2006م، تحت عنوان (في التعريف بالقرآن). وكان من المفهوم أن تتفاوت الفراءات على مستوى تدبّر دلالات الربط، هذا وإن كانت أغلب الفراءات قد رأت في (الأخذ) من المستشرقين، وفي حال الجابري دائماً، ما "يسيء" إلى الإسلام ككل. ينظر في هذا الصدد: يحيى بن الوليد، محمد عابد الجابري وإعادة بناء القول الديني، ضمن: التراث والحداثة في المشروع الفكري لمحمد عابد الجابري (جماعي)، دار التوحيد للنشر والتوزيع، الرباط، 2012م.

¹⁴ للمزيد من التوسع في الموضوع ينظر: يحيى بن الوليد، عبد الله العروي ونظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي، مجلة نزوى، العدد 54، 2008م.

خطورة من فرانز فانون!)⁽¹⁵⁾؛ بل إنَّ صاحب الكتاب "يصيح" بدوره، وإنَّ عَرَضاً، قائلاً: "لا نريد التبشير بأيَّة غائية، ولا نريد أن نوجّه أيَّة صرخة قانونية"⁽¹⁶⁾؛ فرانز فانون، الذي ستتعدّد الإشارات إليه في كتابات سعيد بدءاً من الثمانينيات، بعد أن كانت لا تعدو شكل إشارات عابرة من قبل⁽¹⁷⁾.

وربّما وجبت الإشارة، كذلك، إلى أطروحة (النقد المزدوج) التي اشتهر بها عبد الكبير الخطيبي، وهي الأطروحة، التي لا تزال تمتلك قابلية (الترهين) ضمن جدل ما بعد الاستشراق. وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى كتاب (ما بعد الاستشراق: مراجعات نقدية في التاريخ الاجتماعي والثقافي المغربي 1990 – 2008م)⁽¹⁸⁾ لصاحبه الباحث والأكاديمي الأمريكي من أصل ليبي علي عبد اللطيف احميده، الذي شدّد على (النقد المزدوج). وقد أعلن صاحب الكتاب، في نهاية مقدمته، أنّ الخروج من مأزق الاستشراق، في شقّيه التقليدي والجديد، يكون بما يسمّى (النقد المزدوج). وينصب هذا النقد الأخير على (الذات) و(الآخر)، أو، بلغة الخطيبي، "ينصب علينا كما ينصب على الغرب، ويأخذ طريقه بيننا وبينه، فيرمي إلى تفكيك مفهوم الوحدة، التي تثقل كاهلنا، والكلية التي تجثم علينا، وهو يهدف إلى تقويض اللاهوت، والقضاء على الإيديولوجيا، التي تقول بالأصل والوحدة المطلقة"⁽¹⁹⁾.

غير أنه سيكون من المفيد أن نلتفت إلى (الخلفية الفلسفية التفكيكية)، التي كان يصدر عنها الخطيبي، وإلا فسنسوّي بينه وبين إدوارد سعيد، الذي كان، بدوره، قد أخذ بهذا النوع من (النقد)، لكن في سياق مقولة (المستعمر) و(المستعمر). فـ(الذات)، أو (النحن) بدورهما لا تسلمان من (النقد)، لاسيما من ناحية (الإيديولوجيا القومية) التي تظاهرت، سواء أثناء مجابهة الاستعمار أم منذ السنوات الأولى من (الاستقلال)، عبر (أشكال) لا تَقَلّ، من حيث الجوهر، "شراسة" عن (الأشكال)، التي انتشر عبرها الاستعمار. وهذه فكرة كان قد شرّحها فرانز فانون في (معذبو الأرض) (1961م). وعاد إدوارد سعيد، بكثير من الاشتقاق والإبداع، إلى تفصيل القول فيها في (الثقافة والإمبريالية) (1993م). فصاحب (الاستشراق) يقول بنوع من (النقد المزدوج) الذي يشمل (المستعمر) و(المستعمر) في آنٍ واحد، حتى لا يقع التركيز على الطرف الثاني فحسب...

¹⁵ عبد الكبير الخطيبي، جاك بيرك أو نكهة الاستشراق، ترجمة محمد براءة، مجلة البحث العلمي (عدد خاص بعبد الكبير الخطيبي)، العدد 48، 2004م، ص 29

¹⁶ المصدر نفسه، ص 44

¹⁷ رضوى عاشور، الصوت/ فرانز فانون، إقبال أحمد، إدوارد سعيد/ الفلسطينيون والأدب المقارن (جماعي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م، ص 84

¹⁸ علي عبد اللطيف احميده، ما بعد الاستشراق: مراجعات نقدية في التاريخ الاجتماعي والثقافي المغربي 1990 – 2008م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009م.

¹⁹ عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، دار العودة، بيروت، (د.ت)، ص 164

والانغلاق، من ثمّ، في إطار من (الثقافة المغلوبة)، ما يفضي إلى (الاستعلاء القومي) (الذي مارسه الغرب أيضاً)، وما يحرم النقد من (ازدواجه).

والنقد الأخير هو ما يدرجه بعض من المهتمين بالمنجز السعدي في نظرية (ما بعد الخطاب البديل) (Post-alternative discours). ويشرح الباحث المغربي خالد الشاوش الفكرة قائلاً: "والمقصود بهذا التصنيف هو أن يتجاوز مثقفو الشرق وكتّابه ومفكروه خطاب ردود الأفعال، وإثبات الذات، وتبرئتها من الصفات القدحية، التي حاول الآخر أن يلصقها بها؛ أن يتجاوز ذلك الخطاب إلى خطاب آخر أكثر رزانة، وأكثر موضوعية، وأكثر تجرداً، حيث يعترف هؤلاء المثقفون والمفكرون بما لثقافتهم وما عليها، عوض إعادة خطاب مماثل للخطاب الإمبريالي في محاولة للتخلص منه"⁽²⁰⁾.

وعلى ذكر فرانز فانون، وباعتباره واحداً من الممهدّين البارزين لنظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي، لا بأس في أن نشير إلى إحدى الدراسات الأولى المنسية لشيخ النقاد في المغرب الأستاذ محمد برادة. ونقصد، هنا، كتاب (فرانز فانون أو معركة الشعوب المتخلفة) (1962؟)، الذي نشره برادة بالاشتراك مع المؤرخ المغربي محمد زنيير، والكاتب مولود معمري. وقد سعى الكتاب إلى تقريب "وعي فرانز فانون"، من حيث هو "وعي أفقي متّسع" "أعطى صوتاً قوياً للعالم الثالث"⁽²¹⁾. والكتاب مكتوب بنبرة شبابية حماسية ملحوظة؛ بل إنه كان يتوجّه، وقتذاك، إلى الشباب، لاسيما الذين كان يدرّسهم برادة الشاب بدوره، في جامعة (ظهر المهرار) في فاس، في تلك الفترة الإيديولوجية الساخنة من تاريخ المغرب.

ونعود إلى كتاب (الاستشراق)، فقد حظي هذا الأخير بعرض متميز في (المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع) (العدد 65، 1981م، ص 7 - 14)، التي كانت تصدرها جمعية الدراسات الاقتصادية، والاجتماعية، والإحصائية في الدار البيضاء (1974 - 1986م). وتجدر الإشارة، أيضاً، إلى العرض، الذي حظي به كتاب سعيد في مجلة (خطوات) (العدد 3، 1980م). وتسمية العرض (عرض حول كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد)، في (المجلة المغربية)، التي حرص د. امحمد بن عبود، وعبد العزيز السعدي، على الاحتفاظ بها على مستوى العنوان، لا تخلو من (تدخل) و(أفكار دالة).

وأهم ما جاء في العرض: "إن كتاب إدوارد سعيد (الاستشراق)، زيادةً على تحليله للمنهج الاستشراقي، يعكس فهماً عميقاً وإدراكياً لميدان الاستشراق، كما يتجلى عند الكاتب، من خلال إشارات إلى عدد

²⁰ خالد الشاوش، حول دور المثقفين والكتاب وثنائية السلطة والثقافة عند إدوارد سعيد، بصمات، ص 97

²¹ محمد برادة ومولود معمري ومحمد الزنيير، فرانز فانون أو معركة الشعوب المتخلفة، نشر دار الكتاب، الدار البيضاء، (دبت)، ص 7

مهمّ من المستشرقين. وفضلاً عن ذلك، المؤلف له اطلاع واسع على تاريخ العلوم الإنسانية، والتطورات التي مستّ مناهج هذه العلوم، ما سهّل عليه تقييم وانتقاد الاستشراق في إطاره العام. ثم إنّ أصله الشرقي مكنّه، أيضاً، من كشف وتحليل الشرق ومقابلته مع حديث المستشرقين المتناقض مع الواقع. وربّما كانت مساهمته الأكثر أصالة هي تطبيقه الملتزم لنقد النصوص في أعمال المستشرقين، فالكتاب يحتوي على مختاراتٍ واقتباساتٍ من أبرز المستشرقين (فرنسيين وبريطانيين) لا تتجو من نقده، أو من نقد المصادر التي أخذت منها⁽²²⁾.

غير أنّ العرض لا يخلو من بعض الانتقادات الملطفّة الموجهة إلى كتاب (الاستشراق)، كتلك التي تنصرف إلى (النخبة المثقفة الشرقية في الغرب)، التي يمكن اعتبارها قوة جديدة منافسة للاستشراق، وإن كانت لا تتنازع وجوده⁽²³⁾. وإدوارد سعيد يمثل نموذجاً لهذه القوة (المناضلة) الانتقادية. وكان من المفيد لو عبّر عن رأيه حول هذه القوة الناشئة⁽²⁴⁾ ... وصولاً إلى (إيجابية الاستشراق) المتمثلة في إبراز شخصيات إسلامية كانت في طيّ إهمال؛ منها الحلاج، وابن حزم، وابن خلدون. فلم يدرس أيّ شرقي ابن حزم كما درسه أسين بلاثيوس، أو الحلاج كما درسه ماسينيون⁽²⁵⁾.

فمن الجلي أنّ العرض، على الرغم من منحاه الوصفي الظاهر، لا يخلو من "أفكار دالة"؛ بل إنه استطاع أن يلفت الأنظار إلى الكتاب في المغرب، لاسيما أنّ العرض لم يعتمد الترجمة العربية الملغزة، التي كانت قد ظهرت في العام نفسه، والتي أنجزها المترجم والشاعر كمال أبو ديب. لذلك، وفي دلالة على أهمية العرض، لم يكن غريباً أن يرد عليه إدوارد سعيد نفسه برسالة مركّزة بعث بها إلى صاحبي العرض. والرسالة لا تخلو من اعتراض لبق وطفيف، وهي من تعريب المجلة. يقول في الرسالة: "[...] إنّ جزءاً من مشكلتي هنا، بأبسط طريقة، وعلى مستوى شخصي، أنني منفيّ؛ فلا جذور لي في الأساس كشخص. لقد كان عملي، كفلسطيني، يتركّز في كفاح سياسي ملموس حاولت المساهمة فيه بكتاب أصدرته حديثاً حول فلسطين. وتحذّث فيه، كما فعلت في كتاب (الاستشراق)، إلى، وحول، ومن داخل؛ النظام الغربي؛ ذلك أنني، بكل أسف، موجود هناك، أنني أدرّس في جامعة أمريكية، وطلابي في الأدب الإنجليزي غريبون دون استثناء (فكم من العرب، اليوم، الذين يأتون إلى الغرب مهتمين بدراسة الأمور التي أدرسها، وأكتب عنها؟ إنّ عددهم قليل). ويعتبرني

²² د. محمد بن عبود، وعبد العزيز السعود، عرض حول كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد 65، 1981م، ص 14

²³ المصدر نفسه، ص 13

²⁴ المصدر نفسه، ص 13

²⁵ المصدر نفسه، ص 14

البعض من طلائع النضال في سبيل القضايا العربية والفلسطينية ضد الإمبريالية في قلب الغرب. هنا ممكن قوتي، وفي الوقت نفسه تلك حدودي. إني متعطش للتعاون مع الإخوان والأخوات المثقفين في العالم العربي، ولكني لا ألق إلا القليل منهم، ولقد أخذت رسالتك فرصة لعقد مثل هذا الربط، كما هو الأمر عندما خاطبني الدكتور الخطيبي في فصل الربيع الماضي... مع أطيب التحيات"⁽²⁶⁾.

غير أن القراءة، التي تستوقفنا، أكثر، في حال موضوعنا، ما قام به الكاتب بنسالم حميش، في كتابه (الاستشراق في أفق انسداد) (1991م)، ثم في كتيبه الحوار اللاحق (في معرفة الآخر) (2001م)، الذي هو استمرار للكتاب السابق وإن كان مكرساً للاستشراق الفرنسي فحسب. ويخصّص، في الكتاب الأول، اعتماداً على منظور العرض والنقد، حيزاً ملحوظاً لكتاب (الاستشراق). ويدرس موضوع الاستشراق، أو (المسألة الاستشراقية) كما ينعته، اعتماداً على محاور محددة، هي:

– مركبات الاستشراق ومحطاته.

– صورة العرب والمسلمين في الاستشراق التقليدي.

– الاستشراق والعلوم الإنسانية.

– موقف/ مواقف المثقفين العرب من الاستشراق.

ويستند، في دراسة هذه المحاور، إلى أطروحة مفادها أن الاستشراق في (انسداد)، وأن هذا (الانسداد)، أو (التفكك)، هو ما لا يكثر به، عادةً، المثقفون العرب. والمؤكد أن هذا (الانسداد) قرين (استشراق جديد)، أو قرين ظهور نوع من (المحليين) أو (المختصين)، الذين تحدث عنهم المؤرخ/ المفكر التونسي هشام جعيط في حوار من حوارات (في معرفة الآخر). كما أن إدوارد سعيد، بدوره، تحدث عن الموضوع في مختتم (الاستشراق). وفي هذا الصدد، يقول رضوان السيد: "لقد انتهى الاستشراق التاريخي، وإدوارد سعيد أحد أولئك الذين أسهموا في إنهائه؛ بالإضافة إلى ثورة العلوم الاجتماعية، والعلوم التاريخية، وحاجات الدول إلى الخبراء والمستشارين المباشرين فعلاً، وتصاعد موجات العداء للعرب وللإسلام. إن ما نشهده، في العقدين الأخيرين، من دراسات حول الإسلام القديم والحديث، يشكّل، في مجمله تحولاً عن الاستشراق التاريخي إلى الأنثروبولوجيا"⁽²⁷⁾.

²⁶ المصدر نفسه، ص ص 15-16

²⁷ رضوان السيد، استشراق إدوارد سعيد وعلاقات الشرق بالغرب، المجلة العربية للثقافة، العدد 45، آذار/ مارس 2004م، ص 196

ويصنف صاحب (الاستشراق في أفق انسداده) كتاب (الاستشراق) ضمن محور (المتقفون العرب والاستشراق)، سيراً على منوال كتابات أخرى سعت، بتفاوت، إلى (موضعة) إدوارد سعيد في سياق الفكر العربي؛ لكن دون أن تغرب عن ذهن الكاتب المغربي (الخلفية الغربية) لإدوارد سعيد، الذي كان قد تكوّن في المدارس الكولونيالية البريطانية والأمريكية في مصر، قبل أن يحلّ في أمريكا العام 1951م، ويحصل، من ثمّ، على شهادة جامعية ستخوله، بدءاً من 1963م، منصب أستاذ مادة الأدب الإنجليزي في جامعة كولومبيا الشهيرة، التي سيواصل التدريس فيها إلى أن سيخطفه المرض اللعين العام 2003م.

ويميّز صاحب (معهم حيث هم)، في نطاق دراسة، مواقف المتقفين العرب من الاستشراق، بين (مواقف الرفض المتشنج)، التي يجسدها، بتفاوت، محمد البهي، والطيباوي، ومالك بن نبي. وما يبرّر هذه التسمية، كما يقول، "أن هذه المواقف لا تعتبر الاستشراق إلا كحركة استكشافية تبشيرية، واكبت وعزّزت الحملات (الصليبية) الجديدة لأواخر القرن الماضي، وللنصف الأول لهذا القرن، والمتمثلة في الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية"⁽²⁸⁾.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك مواقف أخرى تبدو أكثر تشنجاً، إن لم نقل تطرفاً، مقارنة بالمواقف السابقة. وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى مواقف (على سبيل التمثيل) أنور الجندي (1914 – 2002م)، التي، بموجبها، تغدو نصوص مثل (ألف ليلة وليلة) و(كليلة ودمنة) و(الأغاني) و(رسائل إخوان الصفا) و(دائرة المعارف الإسلامية) و(الموسوعة العربية الإسلامية الميسرة)... مجرد "سموم" لـ (الاستشراق والمستشرقين).

ويمكن أن نختم، بخصوص الأسماء التي سطرها حميش، بأنّ هناك أسماء تبدو أقرب إلى إدوارد سعيد، على الرغم من تشنجها (الظاهر) أو (السيكولوجي). ونقصد، هنا، الطيباوي، الذي قال إدوارد سعيد، في كتابه (تعقيبات على الاستشراق)، إنّ ما قاله هو ما قاله هذا الأخير (إلى جانب آخرين، كالعروي، وأنور عبد الملك...) ⁽²⁹⁾.

وفيما يتعلق بـ(المواقف التحليلية النقدية)، يعرض الدارس لمواقف كلّ من أنور عبد الملك، وهشام جعيط، وعبد الله العروي، ومحمد أركون، وإدوارد سعيد. وجميع هؤلاء أفردوا للاستشراق مقالات مركزة، وقد ضموها في كتب مهمة، باستثناء إدوارد سعيد، الذي كرّس للموضوع كتاباً بأكمله (الاستشراق). ويرجّح

²⁸ بنسالم حميش، الاستشراق في أفق انسداده، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ص 93

²⁹ إعجاز أحمد وإدوارد سعيد، الاستشراق وما بعده، ترجمة ثائر ديب، ورد، سورية، 2004م، ص 156

الدارس بأنه أول "كتاب نقدي تحليلي"، ما جعله في منأى عن (الوصف التعريفي أو المعجمي) الذي طال مؤلفات مثل (الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا) لميشال جحا و(المستشرقون) لنجيب العقيقي و(موسوعة المستشرقين) لعبد الرحمن بدوي. "وكلها مؤلفات شبة مدرسية، لا ترقى إلى مجال النقد والتحليل، بل تبقى حبيسة الرؤية التقريضية أو الهجائية، تقول بأسلوب تجزيئي انطباعي ما للمستشرقين وما عليهم وتحصي مزاياهم ومثالبهم"⁽³⁰⁾. كتاب إدوارد سعيد من صنف الكتب التي يتوقف فيها الوصف، أو (السرد)، لفائدة "ماكينات النقد"، إذا جازت العبارة.

ويصدّر حميش "منظوره الوصفي/ النقدي" للكتاب ببعض أفكار (النقد العنيف)، الذي كان قد وجهه برنارد لويس لكتاب (الاستشراق) تحت ما كان قد أسماه هذا الأخير بـ(مأساة الاستشراق). وفي مقدّم هذه الأفكار (الاستشراق الكامن) (Latent Orientalism)، الذي كان إدوارد سعيد قد حشر فيه كتاباً وفلاسفةً ورحالة... لا صلة لهم، ظاهرياً، بالاستشراق. هذا بالإضافة إلى عدم اكترائه باستشراق قويّ لبلدان لم تستعمر بلداناً من العالم العربي كآلمانيا، وهولندا... إلخ. وقد كان المؤرخ البريطاني اللبناني ألبرت حوراني (1915 – 1993م) قد وجه، من قبل، جانباً من هذا النقد لإدوارد سعيد⁽³¹⁾، غير أنّ هذا الأخير لم يكثر به. وهو النقد ذاته، الذي وجهه له ماكسيم رودنسون. وكان إدوارد سعيد قد أجاب، على ما بدا لهؤلاء "إهمالاً" للميراث أو الإسهام الألماني، في حقل الاستشراق، قائلاً (ونستحضر نصّه على طوله لأهميته): "لقد أوضحت بجلاء تام أنّ ما أدرسه هو الاستشراق مأخوذاً ليس من وجهة نظر كلّ ما كُتِبَ عن الشرق؛ بل، فحسب، من وجهة نظر القوى، التي كانت لها مصالح استعمارية في الشرق الأوسط (فرنسا، وبريطانيا، ثم الولايات المتحدة) بعد الحرب العالمية الثانية. بوسع الناس أن يقرؤوا الاستشراق الألماني كما يحلو لهم. ولكن وجهة نظري أنا بالذات لم تنصبّ على إبستمولوجيا جميع الدراسات الشرقية؛ بل على تلك التي ارتبطت بمشروع إمبريالي تحديداً. وغباء أولئك الذين لا يكفّون عن تكرار هذا النقد غير الوارد -إذا كان لنا أن نعتبره نقداً- يجعلني أعتقد أن هدفهم ينحصر في تبيان ذكائهم، وأنهم يعرفون بوجود بعض الكتب الألمانية حول الشرق. ولكني أرغب في سماع من يأتي بينهم ويخبرني عن النقطة التي تشكّل إسهاماً ألمانياً في موضوعي أنا. أكثر من القول بوجود بعض الألمان الذين كتبوا عن الشرق الأوسط"⁽³²⁾.

ويمكن أن نجل النقد، الذي وجهه حميش إلى كتاب إدوارد سعيد، في النقاط الآتية:

³⁰ بنسالم حميش، الاستشراق في أفق انسداد، ص 126

³¹ ظهرت دراسة ألبرت حوراني (The Road to Morocco) أول مرة العام 1979، وهي مترجمة إلى العربية ومتداولة في شبكة الاتصال الدولي.

³² إدوارد سعيد، الهويات تعددية والمنفى حقل كريم (حوار مع إدوارد سعيد)، مجلة الكرمل، العدد 78، شتاء 2004م، ص 113

– طلب إدوارد سعيد من المستشرقين المستحيل المتمثل في تخليهم عن دورهم كعلماء.

– سكوته عن المستشرقين المعجبين والمنوّهين بحضارة الشرق.

– عدم اكترائه بنقد المستشرقين الذاتي، أو نقد بعضهم بعضاً.

– تثمينه لمستشرقين فرنسيين مشكوك في أهليّتهم العلمية.

– التوجّه النقدي المفرط للكتاب، ما أوقع صاحبه في بعض المغالطات.

يبدو جلياً أنّ قراءة حميش تنتظم في سياق أوسع هو سياق تأثير الاستشراق في الفكر العربي المعاصر. ولذلك كانت قراءته لا تخلو، من ناحية الصلة التي تصل (القارئ) بـ(المقروء)، من (تدخل)، على الرغم من منحنى (العرض)، الذي يبدو غالباً داخلها. ثم إنّ النقد، الذي وجّهه إلى كتاب (الاستشراق) لا يخلو من أهمية، ولا يمكن التغافل عنه في سياق دراسة تلقي (النص السعدي) في الثقافة العربية المعاصرة ككل... بل محاولة (توريثه)، (إبستمولوجياً)، في الثقافة الأخيرة.

ولا يمكن دراسة (النص السعدي) من خلال المقالات والدراسات المتفرقة فحسب، فثمة الملفات المتضمنة في المجالات أيضاً. ولا تخلو هذه الملفات من أهمية طالما أنها جديرة بأن تعكس جغرافيات ثقافية متنوعة، ولا سيّما حين يتعلق الأمر بقامات فكرية ذات انتشار واسع كإدوارد سعيد. ومن هذه الناحية، ناحية (الخطاب المجلاتي)، فقد أعدت، في سياق التلقي العربي لإدوارد سعيد، ملفات عديدة بعضها وازن، سواء أثناء حياته أم بعد وفاته. وهذه المجالات كاشفة عن سياقات تداول مختلفة، إضافة إلى أنها متفاوتة من ناحية القيمة الفكرية.

ولا يبدو غريباً أن نشدّد، هنا، على الملف المتضمّن في بعض المجالات المغربية، طالما أننا نُنعي بدراسة "تمثّل" النص السعدي في الثقافة المغربية، دون أن تفوتنا الإشارة إلى العدد المحدود، والمخل، للمجلات في المغرب. إضافة إلى عدم ارتقاء المجالات إلى أن تسهم، بشكل فعّال، في الواقع الثقافي. والملفات هي: ملف (إدوارد سعيد: الشمعة التي انطفأت في ليل الغرب) في مجلة (ضفاف) (العدد 5، 2003)، وملف (إدوارد سعيد) في مجلة (الثقافة المغربية) (العدد 28 – 29، 2005م)، وملف (إدوارد سعيد: المفكر والناقد) في (بصمات) (العدد 2، 2007م).

ويهمنا أن نتوقف عند ملف (الثقافة المغربية)، الجدير بالكشف عن حجم "تلقي" صاحب (الاستشراق) في المغرب، على الرغم من "السرية" التي طالت الاستكتاب، ما كان له تأثير على مستوى إشراك "أصوات"

أخرى كان بإمكانها أن تكشف عن آفاق أخرى ضمن هذا التلقي. وبهنا أن نتساءل حول التصور الناظم للملف المتضمن في نص المقدمة، التي خصّ بها المفكر (القومي) كمال عبد اللطيف المجلة. وهي المقدمة التي يحدّد فيها المجالات، أو الجبهات، التي كتب فيها إدوارد سعيد، بدءاً من مجال النقد الأدبي، الذي افتتح به مساره العام، وانتهاءً بالنقد الموسيقي، الذي افتُتِن به، مروراً بالنقد الثقافي والنقد السياسي، ودور المثقف جنباً إلى جنب مجاله الأثير المتمثل في نقد الاستشراق، وضمنه نقد مفهوم الهوية، والمركزية الغربية، والتمركز الذاتي. وكل ذلك في المنظور، الذي أفضى بصاحب المقدمة، كالعادة، إلى التشديد على المكانة البارزة لإدوارد سعيد داخل فضاء الفكر النقدي العربي والعالمي. غير أن مقالات المجلة لم تستغرق جميع هذه الجبهات؛ وهو ما يمكن أن نردّه، كما أسلفنا، إلى "سوء طوية الاستكتاب".

وقد سعت المقالات، في مستوى أول من مستويات التلقي، إلى تقديم قراءة في نصوص متعينة لإدوارد سعيد، على نحو ما فعل بنسالم حميش في مقاله (عن إدوارد سعيد في النص)، الذي هو قراءة في ثلاثة كتب (الاستشراق) (1978م)، و(الثقافة والإمبريالية) (1993م)، و(صور المثقف) (1994م)، موازاة مع قراءة في كتاب منفرد، كما فعل شرف الدين ماجدولين في عنوانه (الهوية وانزياحات الوعي)، الذي هو قراءة في كتاب (خارج المكان) (1999م) باعتباره نصاً من "النصوص السيرية" في السرد الفلسطيني المعاصر. هذا وقد شدّدت مقالات أخرى على الجانب المفاهيمي، سواء بالتركيز على مفهوم واحد، كما فعل لحسن حداد في (مشروع إدوارد سعيد ومقولة التهجين) أو مفهوم (النزعة الإنسانية) كما ترجم محمد برادة، أو أكثر من مفهوم كما فعل أحمد فرشوخ في (إدوارد سعيد التأويل والدينيوية). ومن هذه الناحية، بدت القراءة المفاهيمية أكثر "إنتاجية"، مقارنة بقراءة الكتب التي بدت، من جوانب عديدة، وصفية ومتسرّعة.

ومن المؤكد أن تستوقفنا، أكثر، دراسة (إدوارد سعيد في المغرب) لصاحبها إسماعيل العثماني، لاسيما أن ملف (بصمات)، بدوره، لم يتضمن دراسة من هذا النوع، وعلى أهمية الملف، مقارنة مع ملفّ (الثقافة المغربية)، الذي لم يفتح ولو في حد أدنى على الشعبة الإنجليزية في الجامعة المغربية. وكان إسماعيل العثماني قد خصّ إدوارد سعيد من قبل بمقال (إدوارد سعيد بين النقد الديني والنقد العلماني) (مجلة فكر ونقد، العدد 24، 1999م)، هذا بالإضافة إلى مقالات أخرى متفرقة حول موضوع الاستشراق. إنه، بشكل من الأشكال، واحد من الذين يعتقدون بجدوى الانتساب إلى مدرسة إدوارد سعيد، جنباً إلى جنب أسماء أخرى مثل جمال الدين بن حيون، وخالد أمين... إلخ. ولا تخلو الدراسة من أهمية؛ لأنها الوحيدة التي فكّرت في موضوع "توظيف" إدوارد سعيد في الفكر المغربي.

ويمكن دراسة الموضوع على أكثر من مستوى، على الرغم من "الحضور الشاحب" لإدوارد سعيد في هذا الفكر. وهي الفكرة ذاتها، التي ينطلق منها الدارس. يقول: "وحيثما نستطلع حضور إدوارد سعيد في الوسط الأكاديمي المغربي تحديداً، نلاحظ أن (الاستشراق) هو الكتاب الوحيد تقريباً، الذي يتناوله الجامعيون والباحثون بشيء من العمق على مستوى الدراسة والتدريس. وتكاد شعب الإنجليزية تنفرد بهذا الكتاب، وباسم إدوارد سعيد بصفته ناقداً. أما الشعب الأخرى، لاسيما شعبة الدراسات الإسلامية، وما يحوم في فلكها، فعادة ما تستخدم إدوارد سعيد بطريقة بشعة تنمّ إمّا عن جهل محبط بمشروعه، وإما عن قصد وصولي يرمي إلى استغلال وقع مواقف سعيد من الغرب، فتموقعه في دور ناصر الدين على القوم الكافرين"⁽³³⁾. والحق أن هذه الملحوظة كانت ستكون أكثر أهمية لو أنّ صاحبها، أو غيره، عزّزها، في إطار من (الإسلام التخيلي)، بجرد (النصوص)، التي تتدرج ضمن (القراءات الاستعمالية)... بدلاً من أن يتركها "عائمة"، دون، على الأقل، "إضاءة نقدية".

ويأخذ الدارس على التلقي العربي (السطحية)، إضافة إلى (الانتقائية الاستعمالية، الإسلامية والقومية). وفي هذا السياق، يخلص إلى أن "أكبر المستغلين والمستفيدين من كتاب (الاستشراق) (ومشروع سعيد في مجمله) هم الشرقيون، الهنود والباكستانيون، وباحثون آخرون من أصول شرقآسيوية وأفرو أمريكية..."⁽³⁴⁾. وهي الفكرة ذاتها، التي كان قد شدّد عليها المؤرخ الاسكتلندي للشرق الأدنى كيث وايتلام، أحد أبرز الأسماء البارزة ضمن ظاهرة (المؤرخين الجدد) في إسرائيل، وصاحب الكتاب الأكاديمي (اختلاق إسرائيل القديمة) (1996م)، الذي كان إدوارد سعيد قد شدّد عليه في مقاله (الاختلاق والذاكرة والمكان)؛ بل عدّه "بالغ الأهمية" في حوار (القلم والسيف)⁽³⁵⁾.

ويتصور صاحب الكتاب الأخير أن تأثير (الاستشراق) كان "مفارقاً"؛ لأنه بدلاً من أن يكون تأثيره في الشرق الأوسط، الذي ركّز عليه، تحقق تأثيره، أو النجاح الأكبر، فيما يتعلق بـ"استرداد الماضي"، في مجال التاريخ الهندي، من خلال ما يعرف بـ(سبالترن) (Subaltern) k أو (مجموعة دراسات التابع)، التي تستخدم، في بعض الأحيان، مقابلاً للدراسات ما بعد الكولونيالية. ويمكن أن نلخص بأن أصحاب هذه المجموعة نجحوا في تحدّي النماذج المهيمنة على كتابة التاريخ الهندي، التي كانت، حتى بداية الثمانينيات، مشتقة من تاريخ الهند

³³ إسماعيل العثماني، إدوارد سعيد في المغرب، الثقافة المغربية، العدد 28-29، 2005م، ص ص 30-31

³⁴ المصدر نفسه، ص 31

³⁵ إدوارد سعيد، القلم والسيف (حوار)، مجلة البحرين الثقافية، ص 76

الاستعماري. لقد تمكّن هؤلاء من المطالبة بـ(السياق الأكاديمي)، وبالتالي من هدم (الروايات الرسمية)، التي كانت تقوم على "فهم استشراقي" للمجتمع الهندي⁽³⁶⁾.

ويظهر أن ملف (خطاب ما بعد الاستعمار في جنوب آسيا)، ضمن مجلة (ألف) (العدد 18، 1998م)، جدير بأن يكشف عن جانب من هذا الموضوع، وكلّ ذلك في المنظور الذي لا يفارق دلالات (القراءة)؛ قراءة كتب إدوارد سعيد ودراساتها ونقدها، بدلاً من "الاستفادة" منها، و"استغلالها" فحسب؛ وهو ما توضحه ليلي غاندي في دراستها المشار إليها من قبل. وهو الملفّ الذي تضمّن المقال الأبرز للناقدة الهندية جياتري سبيفاك (دراسة التابع: تفكيك التاريخ) الذي ترجمته وقدمت له سامية محرز.

إجمالاً، إنّ مقال دارسنا لا يخلو من "سجال". والظاهر أنّ تخصيص حيّز أكبر من الحيّز الذي تتيحه، عادةً، المجالات، جدير بالكشف عن آفاق أخرى لدراسة الموضوع، ولا سيما في منظور (القراءة التشخيصية) التي تسعف على "تشخيص" مقتضيات (السياق المعكوس)، الذي يحد من "انتشار" إدوارد سعيد في المغرب.

والظاهر أنّ ثمة مقالات أخرى بالمجلة يمكن الاعتراض عليها من بعض الجوانب. ومن هذه الناحية، سيكون من الصعب الاستقرار على موضوعة مصنف (خارج المكان) ضمن (السرد السيري الفلسطيني المعاصر)، لا لأن إدوارد سعيد كان يقول بنوع من (الهوية المركبة) فحسب؛ بل لأنّ فلسطين ذاتها كانت، بالنسبة إليه، "فكرة"، لا "مكاناً تفصيلياً". هذا بالإضافة إلى أنه كان يتحفظ بخصوص تسمية السيرة الذاتية، يقول: "قاومت مفهوم السيرة الذاتية"⁽³⁷⁾.

فثمة، إلى جانب السيرة الذاتية، (الذاكرة)، التي كثيراً ما يركّز عليها سعيد، لا سيما في المنظور الذي يصل الذاكرة، أو بالأحرى (عمل الذاكرة) بـ(الجغرافيا)؛ ومن ثمّ إمكان تصنيف العمل، دون التغافل عن أن إدوارد سعيد كان عدوّ التصنيف، ضمن ما يسمّى (Le genre mémorial). والحق أنّ ما نسعى إليه، هنا، هو أنّ (خارج المكان) أبعد من حصره سواء في السيرة الذاتية، أم في عمل الذاكرة. فالعمل "أروع ما كتب إدوارد سعيد"، كما يقول صديقه ترفيتان تودوروف⁽³⁸⁾، و"بلغ فيه قمة إنتاجه النقدي بشكل خاص"، كما يضيف حلّيم بركات⁽³⁹⁾. و"يجدر بنا أن نحترس من أيّ فهم استطريقي، أو عديمي، للعبارة التي جعلها سعيد عنواناً لسيرته الذاتية (خارج المكان)، كما يقول فتحي المسكيني، و"ليست عبارة (خارج المكان) مجرد

³⁶ كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة سحر الهندي/ عالم المعرفة، العدد 249، 1999م، ص ص 360-361

³⁷ إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، دار الآداب، ترجمة نائلة قلقل حجازي، دار الآداب، بيروت، 2008م، ص 445

³⁸ نقلاً عن فصول (المصرية) (ملف حول إدوارد سعيد)، العدد 64، صيف 2004م، ص 216

³⁹ حلّيم بركات، إدوارد سعيد الكاتب والناقد الأدبي وصاحب قضية، المجلة العربية للثقافة، العدد 45، آذار/ مارس 2004م، ص 132

عنوان؛ بل هي كلمة تخترق كلّ مساحات سيرة إ. سعيد، كما أخذ في تسجيلها منذ 1994م⁴⁰، كما يواصل فتحي المسكيني⁽⁴⁰⁾.

وما قلناه عن (خارج المكان) ينطبق على أغلب أعمال إدوارد سعيد، مما لا يستلزم تلك (القراءة النبيلة والمقربة) فحسب، كما وصفها سعيد نفسه في مواضع متفرقة من كتابه (الأنسية والنقد الديمقراطي)⁽⁴¹⁾؛ بل يستلزم، أيضاً، نوعاً من (القراءة النسقية) في مجموع المنجز السعدي. وقراءة من النوع الأخير جديدة بأن تجعلنا نتلافى (القراءة التجزيئية) التي تقضي، حتماً، إلى أحكام تجزيئية ومبتسرة. ولذلك يمكن القول إنّ الملف كان، في مجمله، محكوماً بـ(ظرفية الموت). ومن ثم منشأ (التوليف القرائي) الذي لم يعكس ذلك النوع من (الحضور النقدي والفكري المستقل)، الذي يخدم (الأفق الإدواردي). وحتى ملف (بصمات)، وعلى أهميته الأكاديمية التي لا تنكر، لم يفارق "السياق التعريفي بكتابات سعيد الغنية والمتنوعة"، على نحو ما جاء في مقدمة المجلة ذاتها⁽⁴²⁾.

وفي هذا الصدد، يمكن التوقف عند بعض الملفات، التي أعدت حول المنجز السعدي، سواء في حياته أم بعد مماته، مثل ملف (إدوارد سعيد) في (البحرين الثقافية) (العدد 28، نيسان/ أبريل 2001م)، وملف (إدوارد سعيد مفكر كوني...) في (الكرمل) الفلسطينية (العدد 78، شتاء 2004م)، وملف (أوان) البحرينية (العدد 6، 2004م)، وملف (فصول) المصرية (العدد 64، صيف 2004م)، وملف (إدوارد سعيد) (1935 – 2003م) في (المجلة العربية للثقافة) (العدد 45، آذار/ مارس 2004م)، وملف (إدوارد سعيد والتقويض النقدي للاستعمار) في (ألف) مجلة البلاغة المقارنة (العدد 25، 2005م)، وملف (في الذكرى الخامسة لرحيل إدوارد سعيد) في (الكلمة) الإلكترونية (العدد 22، تشرين الأول/ أكتوبر 2008م) ... وصولاً إلى ملف (إدوارد سعيد وتراجيديا الاستشراق) (الإمارات الثقافية) (العدد 6 تشرين الأول/ أكتوبر 2012م).

وملفات من هذا النوع، بما في ذلك ملفات لم نذكرها، يبدو فيها حضور إدوارد سعيد طاعياً ومهيماً، جديدة بأن تكشف عن "التنوع"، الذي يطبع "التعامل" مع (النص السعدي). ثم إنّ هذا "التنوع"، الذي يبلغ حدّ (صراع التأويلات)، الذي تتحدث عنه الهرمينوطيقا، أو الدراسات التأويلية، ما كان له أن يتحقّق لولا "قوة النص السعدي".

⁴⁰ فتحي المسكيني، الهوية خارج المكان والنزعة الإنسانية في فكر إدوارد سعيد، المجلة العربية للثقافة، ص 303-304، ص 313

⁴¹ إدوارد سعيد، الأنسية والنقد الديمقراطي، ترجمة فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، 2005م، ص 14، 55، 88

⁴² بصمات، ص 11

وعلى مستوى آخر، يتيح مشروع سعيد إمكانات منهجية وتصورية غنية لدراسة قضايا عديدة؛ مثل: الهوية، والعنصرية، والنسوية، والأدب، والسينما، والموسيقى، والعمارة، والترجمة (بوصفها إمبراطورية)، والصحافة، والذاكرة، والجغرافيا الثقافية، والحرب الثقافية، والإرهاب، والعولمة، وصدام الحضارات... وهي قضايا جدية بأن تحررنا من القراءة النمطية، التي، عادةً، تحصر إدوارد سعيد، بكثير من (الوثوقية)، في كتب (الاستشراق)، و(تغطية الإسلام)، و(الثقافة والإمبريالية).

وتجدر الإشارة إلى أننا لا نريد، من خلال تحديد المجالات السالفة، السقوط في الأسطورة القائلة بـ"فتح جميع الأفق بمفتاح واحد"؛ فالدراسات ما بعد الكولونيالية -كما يقول دوغلاس روبنسون (Douglas Robinson)، وكما كررنا في أكثر من دراسة- لا تحاول أن تفسر جميع الأشياء في هذه الدنيا؛ بل تقتصر على هذه الظاهرة الواحدة المهمة، السيطرة على ثقافة معينة من قبل ثقافة أخرى⁽⁴³⁾. ومن ثم فإن غايتنا هي تأكيد الآفاق المختلفة، والمتنوعة، التي يتيحها خطاب إدوارد سعيد، ونظرية الخطاب ما بعد الكولونيالية عامة، على مستوى دراسة الموضوعات والقضايا، التي أشرنا إليه قبل قليل؛ بل غيرها من المواضيع، التي قد لا تخطر على البال؛ كموضوعي (الفلاحة الكولونيالية)، و(الطب الكولونيالي)، الذي كان، بدوره، إحدى أدوات الإمبريالية.

كتاب (الاستشراق) لم يتم التجاوب معه بشكل مقنع في المغرب، ولم يُفتح بخصوصه نقاش واسع سيراً على ما حصل في بلدان كثيرة من العالم، لاسيما أن نقاشاً من هذا النوع يحرّر مما كان قد اصطلح عليه السوسيولوجي الفرنسي بيير بورديو (Pierre Bourdieu) بـ(الانغلاق السكولاستيكي) (L'Enterrement Scolastique)⁽⁴⁴⁾، لكن في المدار ذاته - وهنا خطورته - الذي لا يفارق (الأكاديمية) ذاتها. وكتاب (الاستشراق)، كذلك، من حيث هو "كتاب خصب"، من صنف الكتب التي يُؤشر النقاش حولها على نوع من الحضور في خريطة الفكر العالمي، لا سيما من ناحية موضوع الشرق الذي يغري بمزيد من النقاش. الشرق الذي لا يزال مثقلاً بـ(جروح الاستعمار)، في عالم لا تزال فيه "أي وثيقة من وثائق الحضارة لا تخلو من بربرية"، كما يقول الناقد والفيلسوف الجمالي فالتر بنيامين (Walter Benjamin)⁽⁴⁵⁾.

⁴³ دوغلاس روبنسون، الترجمة والإمبراطورية: نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، دار الفرق، سورية، الطبعة الثانية، 2009م، ص 35

⁴⁴ Pierre Bourdieu, Méditations Pascaliennes, Seuil, Paris, 1997, PP 52-53

⁴⁵ فالتر بنيامين، مقالات مختارة، تقديم رابنير روشليتز، ترجمة أحمد حسان، دار أزمنة، الأردن، 2007م، ص 198

قائمة في أهم المصادر والمراجع:

باللغة العربية:

- إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981
- _____ : الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، 1997
- _____ : القلم والسيوف/ حوارات مع دافيد بارساميان، ترجمة: توفيق الأسدي، دار كنعان، دمشق، 1999
- _____ : تأملات في المنفى، ترجمة: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، 2004
- _____ : تغطية الإسلام، ترجمة محمد عناني، دار رؤية للنشر، القاهرة، 2005
- _____ : إدوارد سعيد: الأنسية والنقد الديمقراطي، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، 2005.
- _____ : الاستشراق، ترجمة: محمد عناني، منشورات رؤية، القاهرة، 2006
- _____ : السلطة والسياسة والثقافة، دار الآداب، ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، 2008
- بنسالم حميش: الاستشراق في أفق انسداد، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1991
- إعجاز أحمد: الاستشراق وما بعده، ترجمة ثائر ديب، ورد، سوريا، 2004
- دوغلاس روبسون: الترجمة والإمبراطورية: نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، دار الفرق، سورية، الطبعة الثانية 2009
- ديبش شاكربارتي: كتاب "مواطن الحداثة – مقالات في صحوة دراسات التابع" لصاحبه، ترجمة: د. مجيب الرحمان، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، 2011
- جماعي: التراث والحداثة في المشروع الفكري لمحمد عابد الجابري، دار التوحيدي للنشر والتوزيع، الرباط، 2012
- _____ : مقاربات سوسيولوجية وثقافية (عدد خاص بعبد الكبير الخطيبي)/ مجلة البحث العلمي، العدد 48، 2004
- _____ : الفلسطينيون والأدب المقارن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000
- شيلي واليا: صدام ما بعد الحداثة: إدوارد سعيد وتدوين التاريخ، ترجمة: عفاف عبد المعطي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006
- عبد الكبير الخطيبي: النقد المزدوج، دار العودة، بيروت، (د.ت).
- عبد الله العروي: الإيديولوجية العربية المعاصرة، ترجمة محمد عيتاني، دار الحقيقة بيروت، الطبعة الرابعة، 1981
- _____ : الإيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1995
- علي عبد اللطيف حميدة: ما بعد الاستشراق: مراجعات نقدية في التاريخ الاجتماعي والثقافي المغربي 1990 – 2008، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009
- كيث وايتلام: اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة: سحر الهندي/ عالم المعرفة، العدد 249، 1999
- محمد براءة ومولود معمري ومحمد الزننير: فرانز فانون أو معركة الشعوب المتخلفة، نشر دار الكتاب، الدار البيضاء (دون تاريخ).
- محمد بن عبود وعبد العزيز السعود: عرض حول كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد/ المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد 65، 1981
- نادر كاظم: السرد والهوية، مركز الشيخ إبراهيم بن محمد بن خليفة، البحرين، 2006

– وليام د. هارت: إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية والثقافية، ترجمة قصي أنور الزبيان، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، 2011

– يحيى بن الوليد: الوعي المخلق: إدوارد سعيد وحال العرب، دار رؤية، القاهرة، 2010

باللغة الفرنسية والإنجليزية:

- Edward Said: La question de Palestine, Trd Jean – Claude Pons, Sindibad, 2010.
- Leela Gandhi: Postcolonial Theory: A Critical Introduction, Columbia Univ Pr, 1998.
- Pierre Bourdieu: Méditations Pascaliennes, Seuil, Paris, 1997.
- Hassan Rachik: le Proche et le Lointain - Un Siècle D'Anthropologie Au Maroc, Editions Parenthèses/ MMSH, 2012.
- Umberto Eco: Les limites De l'Interprétation, Trad: Myrlem Bouzaher, Grasset, Paris, 1992.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com